إلى التيّ أُريدُها أن تكون ..

سدرة عماد بن حسن قطيني

كُل الشكر :

إلى من وقفَ بِجَانبنا رُغماً عن الظروف ، وساندنا لنخطوا هذه الخطوة ، ولم يبخل علينا بمعلوماتهِ ، إلى من تعلمتُ منه أشياء كثيرة أَهمُها أن لا استسلم ، أسابيع قليلة كانت قادرة على حفرِ (سيريوس) بقلوبنا ، كل الثناء لإمِ الدُنيا لإنجابها شخص متفانيّ يحمل بقلبه الخيّر ذو صفات نبيلة مثلك ،

إلى من إقتديتُ بهِ:

« الكاتب القدير : علاء سرحان » .

المُقدمة

يامنْ حَملتنيّ كُرهاً في رحمها تسع شُهور ، و وضعتنيّ كُرهاً،
إلى التي :
أتتْ بيّ إلى الدُنيا كي تُعلمنيّ ، كيف أتكأ على نفسيّ ، وأقسُ لأعاودَ النهوض ،

أنتِ التي تعلمتُ منها الصبرَ على المِحن ، وكيفَ لي أن أكونْ فتاة قوية تُحاربْ كي لا تتركَ حقها للذينَ لا حقَ لهم ، تعلمتُ منكِ دروساً كثيرة لم أكن لأتعلمها لو لم تكونيّ أمي .

_1_

أنجبتني أمي في أواخر الشهر الثاني من سنة 1990
وأطلقتْ عليَّ اسم "بريانا "
يتعجب أصدقائي ومن حوليّ لهذا الاسم ، إلا أنه ذات معنى جميل ،
"بريانا" وتعني القوة والشجاعة ، وتعني أيضاً الجمال والرقة ،
إختيار رائع لفتاة مثلي تحملُ ملامحَ والدتها في حوزتها .

لقد كانت أميّ ربةُ منزل مُثقفة وجميلة.لها أسلوبها الخاص لتجدَ حلاً لكل أزمة تواجهُها.قضيتُ حياتي وأنا أحاول أن أتعلمَ من رزانتها .

_2_

تقدمتُ قليلا بالعمر ،وانا أشاهد أمي ، كيفَ تقوم بالأعمال المنزلية ، و لم نكن مطالبين أنا واخوتي بالقيام سوى بواجباتنا المدرسية ،رغمَ إصرار أفراد العائلة. على تهيئتنا للمهام المنزلية ،إلا أنها أبتْ مراراً وتكرارا، مؤكدة على أنها لا تجد مشقة في خدمتنا ، والأهم أن نتفوقَ بدراستنا ،

لقد إعتدنا دائماً على أن يكون طعامنا مُحضر ،وثيابنا نظيفة ، لم يَقتصر الأمرُ على خدمتنا فقط ، بلْ كانت تُعيننا في واجباتنا المدرسية ، كبرنا ونحن غيَّر مبالينْ لشيئٍ قط .

_ 3 _

إعتدنا أنا وإخوتي أن ننادي أمي في حينِ عودتنا للبيت، فقط هكذا لنطمئن لوجودها ،
وعندما كُنا صغاراً ،وفي أشد أوقاتِ تعبها ، لم تحرمنا من حُضنها الدافئ وابتسامتها الجميلة ،
كانت تأكل بقايا طعامنا الذي لا نُحبه ،وتعطينا الخبز الطازج ، لتأكل هي ما بقيّ من البارحة ،

وحينَ جلوسنا على المائدة ، هي كانت تذهب لإكمال أعمال المطبخ ، قائلة أنها استرقت بعضَ اللُقمات أثناء الطَّهي ،وهي غير جائعة ، المهم عندها أن نأكل نحنُ أشهى وألذ الأطباق ،وأن يكون ساخناً ليس ببارد ،وهي تأكلهُ كيفَ ما كان .

_4_

ذات مرة مَرِضت أختي ، التي كانت تَكبرُني بثلاثِ
سنوات،
و لم تنم أمي يومها حتى استعادت أُختيّ عافيتها ،
تلكَ الحنونة لم تكنْ مُجردَ أم ،
بل هي : المربية ،والمعلمة ،والطبيبة ،

وكما استطاعت أن تقدم لنا شتى الأطباقِ و أشهاها ،

قدمت لنا 70 عاماً من عمرها ،
كيّ نقطفَ ثمارَ أعمرِنا .

_5_

لطالمّا سمعتُ صوتَ أميّ وهي تجهر لنا في الدعاء ،كنتُ أنام واستيقظ على صوت دعواتها، لكيّ تطول أعمارنا ، ولا تدري بأنها تدعيّ لها ؛لأنها عُمرنا .

_ 6_

أميّ خائفة ،

من فكرة خسارة أحد فلزات كبدها ، ولا تعلم أن الخسارة الحقيقة هي خسارتها ،

و كيف للإنسان أن يعيش دون سقفٍ يحميه أو حتى خيمة ؟!

_7_

كلُ إمرُءٍ فينا لا يتسع قلبهُ سوا لشخصٍ واحد ،
إلا الأم لها قلبٌ يتسع لجميعِ أبناءها ولو كانوا مئة ،
أجل ، لقد أحبتنا كثيراً ، ولم تفرق يوماً بيننا ،كانت تخطفُ الُلقمة من فمِها لتُعطينا إياها ،
خاصةً أنا ، لأنني كنتُ بجانبها ما استطعتُ أن أكون ، دافعةً عنها بمخالبي الصغيرة ، أبيتُ أن يمسها سوء حتى لو بكلمة،
لذلك أصبحتُ فتاة شرسة كارها للظلمْ ،
ولم يكن لديّ يوماً احتراماً للذينَ حاولوا إيزاء أمي ولو بشقِ تمرة .

_8_

كنتُ لَبوتها الصغيرة ، التي اعتدات أن تقف في وجهِ
من يعاديها ،

تعلمتُ أيضاً أن أدافعَ عن نفسيّ جيداً ، حتى أنني
غديتُ أدافعَ عن إخوتي الذيّن يكبرونيّ سنناً ،
كأنني والدتهم الذي حملتهم في قلبها لا رحمها ،
وهذا الفضل يعودْ إلى أمي .

_9_

21/3

هذا تاريخ حافل، بأمهات رائعاتْ مُضحياتْ مثل أميّ ، بمنظوري الفكريّ من يمتلك مثلَ أمي عليه أن يحتغل بها كل يوم .

منذُ عدت سنوات قررنا أنا واخوتي الإحتفال بها ، لكن كنا لا نملك شيئاً من المال ، سارعتُ لإعداد الشاي وأحضرتُ بعضَ التساليّ التي لدينا ، وقمتُ بكتابة ورقة ليّ ولأخوتي ، عليها بعضُ كلمات الشكر،والرسومات الطفولية التي تُعبر عن محبتنا لها ،
لقد كان شيئاً سخيفاً للغاية أنذاك ، لكنهُ عنى أمي كثيراً ،حتى أذكر أنها احتفظت بالأوراق للذكرى ،

منذُ بضعِ أعوام وأنا لا أملكُ لكِ شيئاً سوا قلةِ كلمات ،وأنا الأن لا أملكُ شيئاً غيّرَ الكتابة ،لعلكِ تستشعرينها .

_10_

إنَّ أمي ذات خصال جميلة أهمها:

_أخذت بيديّ إلى طاعة اللّه، ولم تتوقف عن كونها أم صالحة

-حنيتها المفرطة

-تفهمها للأمور

-كارِها للقيل والقال

- بسيطة جداً لا تُحب التعقيد

- يمكن أن تثق بِها دونَّ أن تُفكر حتى

-يكسوها العناد كما يقول أبي

-طباخة ماهرة كما وصفها أخي

-أم رائعة في كل شيئ تفعله ، بنظرِ أختي

وأنا أقول : أنها معاندة على حق ،

وأن الطبق الرئيسي الذي تقدمهُ لنا هو ، حُبِها

وهي رائعة حتى في إخاطة الثياب كما لو أنها تُخيط جروحنا .

_11_

لم أشعر قط ، أنني بحاجة إلى أن أتمنى أماً غيرها ، كنتُ ممتنة دائماً لكونها الأحنْ والألطف ، لطالَمّا ترددت على مسامعِ كلماتُ المديح بحلاوة روحها ، لكن هي ليست كما يعرفونها ،!
بل هي أحن وألطف مما يظنون .

_12_

تعلمتُ كثيراً من أمي ، علمتني أن:

- لا أثق بأحد .

-أن لا أكونَ لينة مع من لا يستحق لينَّ قلبي .

-أن اعتمدَ على نفسي ، ولا أطلب المساعة من أحد مهما كانت ظروفي.

- علمتني أن أكون حنونة على أطفالي ، وأقف لجانبهم ، وأبقيهم تحت جناحايّ بودي ولينيّ معهم .

- تعلمتُ القوة منها ،

- علمتني أن أداويّ نفسي بنفسي .

_13_

لكل أم شأنها في أسلوب التربية .

منهنَّ من يستخدم الغضب والعنف ،
ومنهنَّ من يعتمد أسلوب المسايرة واللّين ،
ومنهنّ من يَأخُذ المحاورة أسلوب ،

" أميّ أنا "
اعتدمت كُل الأساليب ، كانت تُعاملنا على مَبدأيّ الترهيب و الترغيب ،

إذا نفعَ الكلامُ نفع ، وإذا لم ينفع فلينفعُ العصا .

_14_

الحُبُ نهرٌ وقلبُ الأُمِّ مَنبَعُهُ

والأُنسُ روضٌ وحِضنُ الأُمِّ مَوقِعُهُ

قد قيلَ صِدقًا بأنَّ الأمَّ مَدرَسَةٌ

الخيرُ تَنشرُهُ والعيبُ تَسترُهُ

والبُغضُ تَهجرُهُ والوُدُّ تَزرعُهُ

والأمُّ تاجٌ على الهاماتِ موضِعَهُ

«

للشاعر: محمد بن زياد المنيفي »

_15_

ذاتَ مرة كُنا جالسين في باحةِ منزلنا ، وإذا بدويّ سيارة الأسعاف يقترب ، هلعنا لنعرف ما يجري ، وإذ بهم ينقلون أبنة جارنا إلى المشفى ، بعدَ تعرضها لنوبة سُكر ، وهي في السابعة من عُمرها ، وبعد التدقيق الطبيّ تبينَ أنها تناولت جرعات كبيرة من السكر ، وعندما سأل الأب أبنتهُ من أينَ لها كُل تلكَ الحلوى ، اعترفت أن مرتُ أبيها اعتدات على إعطائها قطع الحلوة في غيابه ؛ لأنهُ لا بسمح لها بتناولها ،
هي لم تكن والدتها ، لو أنَّها والدتها لَمّا فعلتْ ذلك ،وما حدث هذا، ،لكن والدتها ذهبت لتتزوجَ برجلٍ أخر وتركت أولادها .

الحمدُ للهِّ ، أن أميّ لم تفعل هذا بنا يوماً ، إنما سهرت على سلامتنا ليالٍ طويلة .

_16_

إزدتُ أعواماً ، وأصبحتُ في ريعانِ الشباب ،و أنا لازلتُ متمسكة بأطراف أمي،

و غدت هي الصديقة في شبابي ، أرغمتني بلطفها على أن لا أخفي عليها أمراً ، حافظة لسريّ، جعلتني أتِ إليها وكليّ يقين بأنها ستمسحُ عن قلبي كل الوهن ، حتى لو كنتُ مخطئة ،فهي ستغفر لي،

لأن الليّن و المغفرة و الرحمة من صفاتِ الأمهات .

_17_

وفي سنْ الرابعة عشر كنتُ مطرة للذهاب إلى مدينة أخرى ،كيّ أقدم إمتحاناتي فصليّ النهائية ،
لكن أفرادُ عائلتيّ أجمع رفضوا فكرة إنتقالي ،
إلا أمي ، ساعدتني في إقناعهم ،
وحدثتني قائلة :
لولا ثقتيّ التامة بكِ ، لَمّا جاذفتُ في إرسالكِ إلى مكان بعيد وغريب ، لكن كُلي ثقة بأنكِ ستكونين بحجم هذه المسؤولية الكبيرة .

ربما كنتُ أنذاك صغيرة على هذا الحملْ الثقيل ، لكن ثقتها بيّ أمدتنيّ بثقة كبيرة في نفسيّ ،وجعلتني أكبرُ أعواماً لأعرفَ تماماً كيف أكون مسؤولة عن ذاتيّ .

_18_

رائع أن تجد من يقف إلى جانبك ،لكن الأروع أن تجد إلى من يقف خلفك ليقول لك " لا بأس أنا معك "، ولو كانَ الجميع ضدك ،

هذه كانت مهمةُ أميّ ، وقفت لجانبي وساندتني عندما الجميع كانَّ ضدي في شَتى قراراتي .

_19_

أذكرُ أنني مرة ذهبتُ إلى السوق باحثة عن فستان يليق بخطوبة صديقتي ، بقيت لساعات أستبدل فستاناً بأخر ،أحاول أن أختار ما يناسبنيّ، حتى أغرمتُ بفستان ذو لونٍ أصفر هادئ ،تزينهُ ورود الأقحوان ، لكنه لم ينالَ إعجاب أحد من الذين كانوا برفقتنا ، وبدأوا بإلقاء الكلمات المستفذة مثل :

إنظري إلى نفسك أنه لا يليق بكِ أبداً ، لكن لو ارتدتهُ صديقتكِ (لورا) حتماً سيليقُ بها ، وهو أيضاً لا يلقيق بتلك المناسبة ،

وقتها لم أدري ما إذا كانت مشكلتهم بالفستان أم بيّ ! ،

_20_

أستجمعتُ شجاعتي،وأبيتُ أن أبكي أمام غرورهم وغطرستهم ،
كانوا يريدوني أن أشتريّ فستاناً يَعجُ في تفاهاتهم ،
باهظ الثمن كيّ يساوي قيمتهم ،
لم ينتبه أحدٌ منهم على الدموع والكلمات التي كتمتها بداخلي ، ولن يلاحظوا كيفَ كَسروا بخاطري ،

الوحيدة التي عناها ما شعرتُ به ،أكثر مما عناها الفستان الذي لا يليق بي ، هي أميّ ،
حاولت أن تلملمَ دموعي ، وتُصلح ما كُسِرَ بخاطري ،
فقالت أن الفستان لا يليق بيّ ! ، « أنا التي أليقُ بهِ » ،
وسأكون نجمة الحفل كما اعتدتُ أن أكون دائماً .

_21_

أثمن ما يملكهُ المرء هو خاطرهُ ،ُأمي لم تشتري لي عقداً باهظاً ، ولا ثوباً مُرَصعاً بالأحجار الثمينة ، لكنها إشترت خاطريّ ، وهو أعز عليّ من الدنيا ومافيها .

أمي دائماً قادرة على قلب الموازين ببضع كلمات منها ، ولها قدرة عجيبة لإحالة الدموع إلى ضحكاتْ .

_22_

لم أجدَ يوماً شخصاً ألطف من أمي ،
كانت تراودني شكوك بأنها تضمر شيئ من الغضب اتجاهنا ، لأننا لم نكن صالحين بما يكفيّ ، كيّ نليقَ بها ،
لكن حدث أن حصل موقف ،أثبتَ لي عكسَ كلامي
أذكر أنها كانت تنوي أن تغسل الثياب ، وبادرتُ أنا لمساعدتها ،
لا يمكن لأحد أن يتخيل الكم الهائل من الدعوات لي ، ظلت ما يقارب الثلاثون دقيقة متواصلة وهي تدعو لي ، فقط لمبادرتيّ لها بالمساعدة .

مواقف كثيرة برهنت حُبها الذيّ لا يحتاجُ إلى بُرهان ، .

_23_

"غريزة الأمومة ، أم أنها اللهفة!؟ "

حدثَ مرة أن كنتُ منزعجة من عدتٍ أمور وليس بالأمر الواحد ،

وإذ بها تَدخلْ إلى غرفتي ، كيّ تطمئن عليّ ، على غيريّ عادتها، شعرتُ بالغرابة والدهشة !

كيف لها أن تدرك أننيّ متعبة دونَّ أن أخبرها ؟!

أهيَّ شَعرتْ لكونها تعرفني جيداً ؟!

أو لإنها شعرت بيّ لوجود رابط روحيّ يجمعني بها ؟!

لا أعلم كيف استطاعت كشفَ ما أخفيه حتى عن نفسي ،!

أظنها لهفة غريزة الأمومة .

_24_

في إحدى المرات كانت ستصتحبُني للسوق ، لكن حدث شيئ وغابَ مزاجي ،
وعندما أتت لتخبرنيّ لأُجَهزَ نفسيّ أنتفضتُ غاضبة وبدأتُ أصرخ وأبكي ، هي لم يكن لها ذنب في مشاعري الإفعوانية ، لكنها لم تغضب منيّ علمت أننيّ لم استطع أن اتحكم بردات فعلي وهذا شيئ خارج عن سيطرتي، وأنها ليست المعنية بهذا الغضب ، كُل ما فعلتهُ هو أنها خرجت من الغرفة ، ما إن مرة ثلاثون دقيقة حتى فقتُ لنفسيّ ، يا إلهي! ماذا فعلت ؟! ،

_25_

نهضتُ من غرفتي مسرعة إليها ، بادرتُ لسؤالها
أتحتثين القهوة معي ؟
ردت بكلِ صدرٍ رحبٍ ، نعم لِمّا لا .
أعددتُ القهوة ، وجلسنا نتبادل الأحاديث وضَحِكاتْ ،
كأنَ شيئاً لم يكن ،

أخافُ كثيراً من مزاجيتي واشتعالُ غضبي المفاجئ ،
لكن الخوف الأكبر أن لا تجد من يحتمل تلكَ التقلبات
وردات الغعل القوية ، وأن لا تجد من يحتضنك في تلكَ
اللحظات حتى،
لذا أحمدُ اللّه كثيراً كونهُ رزقنيّ بأم حنونة قادرة على
تفهُمي ، والسماح لي بالعودة إلى أحضانها دونَ أن
تُشعرني أنيّ بحاجة لبذلِ جُهدٍ لذلك .
اللهم أميّ وقلبَ أميّ ،اللهم أياماً لا تخلوا من أميّ لأخر
العمر .

_26_

عموماً جَميعُنا لدينا مساوء !،

إلا في عيون أُمَهاتِنا ، مهما كان الأبن أو الأبنة سيئين ، تتحدث عنهم والدتهم بكل حُب ، تَذكُر محاسِنهم و تنفي سيئاتهم ،

و أمي أيضاً هكذا ، كُلما تحدثتْ عنيّ ، إقتطفتْ ما لمستهُ مني من مَحاسن ، وألقتْ كُلَ ما عدا ذلك.

في عيون أمي أنا نجمة ،
وفي عيونيّ ، " أُميّ "، أجملُ من قمرٍ يَتجلى الدُجى .

_ 27_

جاءَ اليوم الذي ستأخرج به من جامعتيّ بعد دراستيّ (لدبلوم اللغة العربية)، لأُحقق أحلام أبي وأمي ،
أذكر في ذلك اليوم أن فرحتهم وفخرهم بيّ ، أكثر بكثير من فرحتي لي ،
لهم كل الفضل ، لوصوليّ للمكان الذيّ أقف فيهِ الآن ، لن أنسى جهدَ والديّ وتعبهُ في العمل حتى وصلَ الشيبُ رأسهُ، وسهر والدتيّ حتى توقظُني لأُكملً دراستيّ ، ودعائها لي بالتوفيق خلال تقديميّ للإمتحانات، وتلكَ الأيام التي قضيتُها في السكن الجامعيّ المليئة بإتصالات أميّ للإطمئنان عليّ ، والوجباتيّ المُفضلة التي كانت تُرسلها إليّ أثناء غيابيّ عن المنزل ، و كُلَ ما سمحتْ لي الفرصة لأعودَ للمنزل ، كانت لا تَملْ من إحضار الفواكه والمشروبات الساخنة والباردة أثناء دراستي،
ما أنا عليهِ أنا ليس بجهدٍ منيّ إنما بجهدهم ،« هم الدافع الأوحد » .

_28_

" تحت مسمى أمي لم تحرمني من شيئاً أُحبهُ "

في الرابعة والعشرين من عمري تقدمَ الشاب الذي أحببتهُ لخطبتي ،عارضَ أبي وأعمامي فكرة زواجي منه ؛ لأننا سنستقر بعد الزواج في مدينة أخرى تَبعُد عن مدينتنا قرابة الأربع ساعات ، ولِمّا سأكون مطرة لمغادرة المدينة ؟! مازال بإمكاني أن أتزوجَ هُنا ،
هم لم يفهموا إصراري على الزواج به ،
ظنو أنني منبهرة بشهادة الدبلوم الحائز عليها في الغة الفرنسية ، أم لأنُهُ تخرجَ من جامعة فرنسية مشهورة .

_29_

وأنا ، وأنا ، التي كان كل انبهاري به ، لشخصهِ، لكونهِ هو ، ولم يكن يوماً إلا هو ،

وَحدها أمي علِمتْ ، أنَّ ما أحبهُ حقاً هو ذلك الوسيم ، وليس ما كان بحوزته من مهارات ،وشهادات ، وأموال، علمتْ أنني سأختارهُ لو كانَ نجاراً لا يملكُ باب ، يكفيني أنهُ يَتملكْ قلبي ، و أتملكهُ ،

_30_

تمكنتْ أُمي من إقناع أبي ،الذي بدورهِ أقنعَ أعمامي ، وتمت خطبتنا ،
قضينا ما يُقارب السنة ونصف نُجهز لحفل زفافنا ،
من لوازم الزفاف ، إلى أثاث منزلنا لقد أخترنا كُل شيئ في عناية فائقة ، عشتُ كُل تلكَ التفاصيل مع الذينَّ أُحبهم ، ومع من أُحب ،

_31_

إقتربَ موعد الزفاف أكثرَ فأكثر ، ذهبتُ مع والدتي ،والمَرأة التي ستكون في مقام والدتيّ و أختي ، لختيار فستان الزفاف ، زَعِموا أن كُل ما أرتديه يليقُ بيّ ،

وكلمّا أرتديتُ فستاناً جديداً ، زرفتْ أُميّ دموعاً ، لا أدري أفرحت لي لأنني مع من أحببت ، أم حزينة لفراقيّ !! .

_32_

أقبلَ يومُ الزفاف ،
مزيج من المشاعر (فرح ، حزن ، أمان ممتزج بالخوف)، كُل تلك المشاعر في أنٍ واحد ، حَضرتُ نفسيّ جيداً كيّ أُزف إلى من إختارهُ قلبي شريكاً له ،

دخلت أمي إلى الغرفة التي أجتمعنا بها أنا و صديقاتي ، و بناتُ أقاربي ،
وهي تبكيّ ، ثمة أنها لم تتوقف عن البكاء منذُ ذلك اليوم الذي حددنا بهِ موعدَ الزفاف ،
أمسكت بيديّ كما لو أننيّ في الخامسة من عُمري ، وأخبرتني كم أننيّ أبدو فاتنة ،وكم أنَّ الفستان الأبيض لائقً بيّ ، وحدثتني قائلة :

_33_

اليومْ ستبدئين حياةً جديدة ، ستذهبِين للعيش في مكان أخر ، و ستكونين بعيدة عن عينيّ ولم استطع أن أطمئنَ عليكِ من حين لأخر ، ستكونين أنتِ مسؤولة عن إعداد الطعام له وتلبية احتياجاته ، أملْ أن تكوني إخترتُ (رَجُلاً) صالحاً ، لقد دعوتُ إليكِ طويلاً كيّ يَكونَ حنوناً لا يقسو عليكِ، يُعاملكِ كرمشِ عينهِ كما يفعل والدُكِ ، ناجيتُ اللهَّ لأن يكون من معدنٍ أصيل ، لا يخون عِشرتكِ ، ولا تَهوني عليه ، أو تُهانيّ .

أفلتت يدايّ وانصرفت ، تركتني لوحديّ أصارع رغبتي في إنهاء كل شيئ والبقاء بجانبها ،

مرت ثلاث دقائق وأنا لازلتُ واقفة مكانيّ، ولم أنطق بكلمة قد تبعثرت كلماتي! ،

_34_

حانَ موعدُ الزفاف ،
أوشكَ (لؤي) على الوصول،
إحداهنَّ وضعت لي الطرحة ، وأخريات سدلوا أطراف الفستان ، وتعالت أصوات الذغاريد ،وانأ مازلتُ واقفة هنالك ، في المكان الذي أفلت فيهِ أمي يدايّ ،
أستعدتُ بضعاً مني ،
وانتظرتُ مجيئَ (لؤي) لنذهب إلى صالة الزفاف ،
وصلَ (لؤي) وأمسكَ بيديّ شعرتُ حينها أنِ عدتُ من المكان الذي كنتُ به قبل عشرِ دقائق من مجيئه ،
و في الطرف المقابل لقلبي هناك أبي ، قبلتُ رأسه ويده ، ومن ثمَ ألقيتُ نظرة على البيت الذي ترعرعتُ به ، غرفتي ، مكان جلوسي مع عائلتي ضحكات أمي وأبي وأخوتي ، شجاراتنا، ألقيتُ نظرة أخيرة على كل شيئ ، ومن ثمَ أكملتُ طقوسَ الوداع ، لأبدأَ حياةً جديدة ،

_35_

لن أبدأَ صباحيّ بقُبلة من أمي ، وما عادت تطمئنَ عليّ في منتصف اللّيل ،

واليوم بعدَ سنة من زفافي ستحضر والدتي لتُقيم عندنا ، لإلمام ولادتي للمرة الأولى ،

نعم أنا أيضاً سأصبح أم ،

أبيتُ أن أكونَ لوحدي في هذهٌ اللحظات ، كُل فتاة ترغب بأن تكون والدتها بجانبيها ، وأنا أيضاً سأصبح أم ،

لكني مازلتُ بحاجة أمي .

_36_

وبعدَ مرور ثلاثة أشهُر من ولادتي لطفلتي " ليان"، ذهبنا في زيارة إلى بيتِ أهلي ،سنمكثُ عندهمْ ثلاثةُ أيام ، كنتُ سعيدة للغاية وكأنهم ثلاثُ سنوات ، فأنا وطفلتي بحاجة إلى حنان أمي ورعايتها،

فورَ وصولنا ، أستقبلَ الجميع ، (أبي وأمي ،أخي وأولاده ،وأختي وزوجها وأطفالها ، (ليان) ، حقاً كأنهم لم يَرونا أنا وذلك المسكين ذو 189 سم ، بعدَ إنتهائهم من استقبالِ حفيدتهم ،

ألقينا السلام ، و رتبتُ الأمتعة ، واسترحنا قليلاً من متاعب السفر ، ثم نهضنا لإعداد العشاء ،

وبعد العشاء أعددنا إبريقاً ضخماً من الشاي ،وجلسنا نتبادل الأحاديث والضحكات ، وألَمَ والديّ بأن يحكيّ قصةَ حُبهِ لوالدتي ،

_37_

حكا لنا والديّ أنهُ أُغرِم بوالدتي (شذى) منذُ الصغر ، فقد كانوا أبناءَ حارةٍ واحدة ، وجميع من في الحيّ تنبأ بزواجهم لكثرةِ انسجامهم من الصِغر ،

كَبُرَ والديّ (حسن) ولازالت تتردد في مسامعهِ تلكَّ الجملة التي قالتها إحدى الجارات (أُراهنكم بأن حسن وشذى سيتزوجن في المستقبل) ،

كانت والدتي غايةً في الجمال ،وأبي لم يكن أقل منها جاذبية ،

وصلت أُميّ إلى الصف الثالث السنويّ ،وأبي أنها جامعتهُ ، ولازالوا يتبادلونَ النظرات ، وبعضَ الكلمات، والورود ،

_38_

وفي إحدى الصباحات أرسلت أمي خبراً إلى أبي بأن هذه الليلة سيتقدم لخطبتها (خالد) أبن جارة لهم في الحيّ ، إنزعجَ والدي كثيراً وأخبرَ جدتي بأنه لم ينتظر بعد والليلة سيتقدم لأمي ، صُدمت جدتيّ لأنهم اتفقوا على خطبتها عندما يبدأ أبي بالعمل في شهادته ،

جهزوا أنفسهم وانطلقوا إلى بيتِ جديّ ، في تمام الساعة السابعة والنُصفْ ، قبل مجيئ خالد وأُمهِ الذي كان موعدهم في تمام الساعة الثامنة ، وهكذا سبقهم أبي جميعاً ليفوز بقلبِ أُمي ، والحقيقة أننا كُلنا فائزونَ لإمتلاكها .

_39_

تزوجتُ وأنا لا أعرفُ شيئاً عن طهيّ الطعام ، فقد كُنتُ متفرغة لدراستيّ فيّ جامعة اللغة العربية ،

تزوجتُ من (رَجُلٍ) حنون ، لا يهمهُ كثيراً ما إذا كان الطعام ناجحاً تماماً أو لا ،

حاولتُ أن أتعلم لوحديّ كيفة طهيّ الرز ،وفرم البصل ، وتقطيع الخضرة دون أن أُفسدَ مظهرها ،

لكنيّ لم أنجح ،

و سَجلتُ بدورة طهيّ لكن لم أمتلك المعلومات الكافية ، عن كيغية لف ورق العنب (الدوالي) ، والكثير من الأكلات التي نحتاجُ جهداً وتركيزاً ، أيضاً فشلت،

لم ينفع معي سوا الدروس التي أَخذتُها من أمي ، أعانتني كثيراً،

لم تتزمر يوماً من قلةِ فقهِ بالطبخ ، وما إن مرَّ ثلاثةُ أشهُرٍ حتى أتقنتُ فنَّ الطهيّ بفضلِ أميّ

_40_

بعدَ مرور ثمانِ سنوات على زواجي ، أصبحَ لديّ ثلاثةُ أطفال ،
وأنا أزدادُ تعلقاً بأميّ ، لازلتُ أتصل بها في حال وقوعي في مشكلة أشكو لها لتمسحَ عن قلبي الحُزن ،

إلى الآن أتصل بها لأسألها عن مقادير وجبة أُريدُ تجربتها لعائلتي ، وماذا عليّ أن أفعل ببقع الشوكولا على قميص طفليّ، وكيفَ سأُخفيّ ،الثقبَ الصغير من فستان طفلتي المفضل لديها ، أستطلع رأيها في ملابسي وملابسُ أطفالي ، أسألها عن ما إذا كان هذا اللون لائق أم لا ،
غدوتُ في الثلاثين وأنا ألجأُ إليها وكأنيّ في الثلاثة عَشر .

_41_

5/ 27

تاريخ اليوم الذيّ كانَ كفيلاً بتغير حياتيّ ، مرَّ خمس سنوات على آخر مرة رأيتُ بها أميّ ، لم أكن مهيئة لهذه الأيامِ أبداً ، لا أعلم كيفَ حدثَ كل هذا فجأة ، الأيام الخالية من ضحكتها ، حضنها الدافئ، ولمسة يدها ،وعيناها لا تحتسب من عمري ، حتى الدموع التي كانت تزرفها لي ، ابتسامتها بوجهيّ لقد إشتقتُ إليها كثيراً ،

لم تعد أميّ كما كانت ..!،

_42_

خمس سنوات مضتْ ، وهي بعيدة عني ، لم تعد تحادثني كما كانت تفعل ، لقد أشتقتُ لأن تكون أمي كما أريدها أن تكون ، أُريدها أن تكونَّ لجانبيّ لتطمئن عليّ وأطمئن عليها ، وأن تسنو عليّ بعطفها ، لا أريد تلَكَّ المسافات اللعينة بيننا ، أُريد أن أعود إلى حضنها بعدَ كل تعب ، ليتها لم تذهب ليتها لم تبتعد ، لكن ماذا عساها تفعل بعدَ إصابتها بذلك المرض ، كانَ يتوجب عليها أن تذهب هي مطرة لذلك ،

_43_

أما عنيّ أنا ، أطررتُ لأتحمل كل الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات التي تخلوا منها ، فلتذهب المكالمات الهاتفية إلى الجحيم ، أريد الإختباء في حضنِ أمي ، وتحسس ملامحها بيديّ ، أريد أن أمسك بيدها لأخبرها أنيّ هنا بجانبها ولم أتخلى عنها ،

أنا ! فقط أُريدُها أن تكون .!

_44_

« أُمـيّ ليست رسولاً لكنها أدتْ ،رسالتها على أكملِ وجه » ♡.

«الكاتبة : سدرة عِماد بن حسن قطينيّ» .